أبو تمام في صنعته الشعرية

للدكتور :

زكريا عبد الرحمن صيام

كلية الآداب - جامعة الرياض

هو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيي بن مرّ بن سعد ابن كاهل بن عمرو بن عدي بن يغوث بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان .

عرف بذكائه وحضور بديهته وقوة عارضته ، وكان يجدّ في أثر المعنى حتى يصل منه الى ما يعسر على غيره تناوله . فانفرد بمذهب شعري صار فيه إماما متبوعاً ، وشهر به حتى قيل : « هذا مذهب أبي تمام » . كما نظم في سائر الأغراض ، لكن المديح اتسع مجاله عنده أكثر من غيره لا تملقاً للمدوحين أو انتظاراً لما لديهم من عطايا ، وإنما إعجابا بهم ، مما أكسب مدائحه قوة ومنعة قلما توفرت لغيره من الشعراء .

وأورد قصيدته الدالية التي مدح فيها خالد الشيباني تقديراً منه لمواقف هذا الرجل ، حيث عالج فيها موضوعات عدة ، واشتملت على خصائص أبي تمام الفنية والنفسية ، وهي من عيون القصائد في تراثنا العربي الأصيل :

مـا لـكـثـيـب الحمى إلى عَـقَـدِهْ ؟
مـا بـالُ جَرْعائه الى جَرَدِهْ ؟ (١)

ما خطبُه ؟ ما دَهاهُ ؟ ما غالَهُ ؟
ما نالَهُ في الحسانِ من خُرُدِهْ ؟ (٢)

النّـــالــبــاتِ امْــرَءاً عـــزيمَتَـــهُ
بالسِّحرِ ، والنافثات في عُقَدِهْ (٣)

لـيـشْنَ ظِـلْـبن ظَـلَّ أمْنٍ مِنَ الـدَّهْـرِ وظِلاً من تـهْـوه وَرَدِهِ (٤)
فـهُنَّ يُـخْـبِـرْنَ عَنْ بُلَهْنِيَةِ العَيْش ويسألْنَ منه عَنْ جَحَدِهْ (٥)

وَرُبَّ ألـــمى منهنَّ أشْـــنَبَ قَـــدْ
رشَفْتُ ما لا يذوبُ من بَرَدِهْ (٦)

قَلْتاً مِنَ الرِّيقِ ناقِعَ الذَّوْب إلاَّ أنَّ بَرْدَ الأكْباد في جَمَدِهْ (٧)
كالخُوطِ في القَدِّ والغَزَالةِ فى البَهْجة وابن الغزالِ في غَيَدِهْ (٨)

ومـــا حَـــكـــاهُ ولا نـــعيم لـــه
في جِيدٍ ، بَلْ حَكاهُ في جَيَدِهْ (٩)

فـالـرَّبْـعُ قَـدْ عَـزَّني على جَـلَـدي
ما مَحَّ مِنْ سَهْلِه ومِنْ جَلَدِهْ (١٠)

لَـمْ يُـبْـقِ شَـرُّ الفِراق منه سِوَى
شَـرَّيْـهِ مِنْ نُؤْيِـه ومِنْ وَتِـدِهْ (١١)

سـأخْرِقُ الخَرْقَ بابْنِ خَرْقاءَ كال
هَيْقِ إذا ما استَحَمَّ مِنْ نَجَدِهْ (١٢)

مُـقَـابَـلٍ في الجَديل صُلْبِ القَرَا
لُوحِكَ مِنْ عَـجْـبِه إلى كَتَدِهْ (١٣)

تـامِـكِـهِ . نَـهْـدِه . مُـدَاخِـلِـهِ .
مَلْمُومِه ، مُحْزَئلِّهِ ، أُجُدِهْ (١٤)

إلى الـــمُـــفَـــدَّى أبي يَـــزِيـــدَ الـــذي
يَضِلُّ غَمْرُ الملوك فى ثَمَدِهْ (١٥)

ظِـــلُّ عُـــفـــاةٍ يُـــحِبُّ زَائـــرَهُ
حُبَّ الـكبيرِ الغبرَ مِنْ وَلَدِهْ (١٦)

إذا أنـــاخوا بِـــبـــابِـــه أخَـــذوا
حُـكْـمَـيْـهِـمُ مِنْ لسانِه وَيَدِهْ (١٧)

مِن كُلِّ لَهْفاته زِدْتَ فى أَوَدِ الأموالِ حتّى أقَمْتَ مِنْ أَوَدِهْ (١٨)
مُـنْـتَـمِـنْـطَـرٌ .حَلَّ مِنْ بني مَطَـرٍ
بحيثُ حَلَّ الطِّرافُ مِنْ عَمَدِهْ (١٩)

قَوْمٌ غَـــدا طـــارِفُ المديح لـــهُـــمْ

وَوَسْمُهُمْ لائِحٌ على تُلُدِهْ (٢٠)
فَهُمْ يميسُونَ البَخْتَرِيَّةَ في
بُرودِه والأَنامُ في بُرَدِهْ (٢١)
لا يَنْدُبُونَ القَتيلَ أَوْ يأتِي الحَوْلُ لهم كاملاً على قَوَدِهْ (٢٢)
إنْ ماءُ مَجْدٍ مَلأْنَ بُورِكَ في
صَرِيحِه للعُلَى وفي زَبَدِهْ (٢٣)
وَهَضْبُ عِزٍّ تجري السَّماحةُ في
حَدُورِه والإباءُ في صُعُدِهْ (٢٤)
نِعْمَ لواءُ الخميس أُبْتَ بِهِ
يومَ خميسٍ عالي الضُّحَى أَفِدِهْ (٢٥)
حِلْتَ عُقاباً بيضاءَ في حُجُرا
تِ المُلْكِ طارَتْ منه وفي سُدَدِهْ (٢٦)
فشاغَبَ الجَوَّ وَهْوَ مَسْكَنُهُ
وقاتَلَ الرِّيحَ وهْيَ مِنْ مَدَدِهْ (٢٧)
ومَرَّ تَهْفُو ذُؤابتاهُ على
أَسْمَرِ مَتْنٍ يومِ الوَغَى جَسِدِهْ (٢٨)
تَخْفِقُ أَقْباؤُهُ على مَلِكٍ
يرى طِرادَ الأَبطال مِنْ طَرَدِهْ (٢٩)
نالَ بِعَارِي القَنا ولابِسِهِ
مَجْداً تَدانَى الجوزاءُ عَنْ أَمَدِهْ (٣٠)
يَعْلَمُ أنْ ليس للعُلَى لَقَمٌ
قَصْدٌ لِمَنْ لَمْ يَطَأْ علىَ قَصِدِهْ (٣١)
تُضْرَمُ ناراهُ في قِرىً ووَغىً
مِنْ حَدِّ أَسْيافِه ومِنْ زُنُدِهْ (٣٢)
مُمْتَلِئُ الصَّدْرِ والجَوانح مِنْ
رَحْمةٍ . مَمْلُوئَيْنَ مِنْ حَسَدِهْ (٣٣)
يأخذُ مِنْ راحةٍ لِشُغْلٍ وَيَشْتَفِي لِبُؤْسِ الزَّمانِ مِن ثَأْدِهْ (٣٤)

فهو لو اسْتَطاعَ عِنْدَ أَسْعُدِه
لَحَزَّ عُضْواً مِنْ يَوْمِه لِغَدِهْ (٣٥)
إذْ مِنْهُمُ مَنْ يَعُدُّ ساعَتَهُ الطَّلْقَ عِياراً لَهُ على أَبَدِهْ (٣٦)
الوىَ كثيرَ الأَسَى على سُؤْدَدِ العَيْشِ قليلَ الأَسى على رَغَدِهْ (٣٧)
قَريعةُ العَقْلِ مِنْ مَعاقِلِه
والصَّبْرُ في النّائباتِ مِنْ عُدَدِهْ (٣٨)

كـالـبَـدْرِ حُسْـنـاً وَقَـدْ يُـعـاوِدُهُ
عُبوسُ لَيْثِ العَرِين في عَبَدِهْ (٣٩)
كالسَّيْفِ يُعْطيكَ مِلءَ عَيْنَيْكَ مِنْ
فِـرِنْـدِ تـارَةً وَمِنْ زُبَـدِهْ (٤٠)
تـا للهِ أنْسَى دِفـاعَـهُ الـزُّورَ مِنْ
عَوْراءَ ذِي تَـبْـرَبٍ ومِنْ فَنَدِهْ (٤١)
ولا تَـنـاسَى أحْـبـاءُ ذِي يَـمَـنٍ
ما كانَ مِنْ نَصْرِهِ وَمِنْ حَشَدِهْ (٤٢)
جـلّـةُ أنْهاره وهـمـدانـه
والشُّـمُّ من أزْدِهِ ومِنْ أُدَدِهْ (٤٣)
آثـرني إذْ جـعـلْـتُـه سَـنَـداً
كـلُّ امـرِئٍ لاجئٌ إلى سَنَدِهْ (٤٤)
في غُـلّـةٍ أوْقَـدَتْ على كَبِدِ الـ
سـائل نـاراً تَـغْـيا على كَبِدِهْ (٤٥)
إيـثـارَ شَـزْرِ القُوى رأى جَسَدَ الْ
مَعْروفِ أوْلى بالطبِّ من جَسَدِهْ (٤٦)
وجـئْـتُـه زائـراً فَـجـاوَزَ بي الْ
أخلاقَ مِنْ مـالِـه إلى جُـدُدِهْ (٤٧)
فَـرُحْتُ مِنْ عِـنْـدِهِ وَلِي رِفَـدٌ
يَـنـالُـها الـمُـعْـتَـفونَ مِنْ رِفَدِهْ (٤٨)

(التفسير اللغوي)

١ — عَقِد الرمل : ما انعقد منه . وأهل نجد يسكنون القاف فيقولون : عَقْد الرمل ، الجرعاء : أرض فيها رمل . جرده : بفتح الراء يحتمل وجهين : أحدهما : الأرض لا نبات فيها ، والآخر : موضع بعينه ، وهو الذي ذكره النابغة والذبياني في قوله :

والـراكضـات ذيول الـريـط فـانَـقَـهـا
بـرد الهواجـر كـالـغـزلان بـالـجَـرَدِ

ومن قولهم في تسكين قاف عقد ما روي عن شاعرهم :

أتـذكـر أم تـنـسـى لـيـالـيـنـا الـتي
بـعَـقْـد الـلّوى سـقـيـاً لهنّ لـيـالـيـا

ولعله — هنا — اسم موضع قريب من الذى ذكره امرؤ القيس في مطلع معلقته « سقط اللوى » :

قـفـا نـبك من ذكـرى حبيب ومنزل
بـسـقـط الـلّوى بين الـدخول فـحومـل

٢ — الخطب : يراد به الشأن . في الحسان : أي في مفارقة الحسان فحذف المضاف وأبقى المضاف إليه . الخرد : جمع خريدة وأراد المرأة الفائقة الجمال .

٣ — عزيمته : ما اعتزم على تركه من الصبابة . السحر : أي حديثهن الفتان وبراعتهن . النافثات في عقدٍ : كأنهن يحللن عقد صبره وحلمه فينفذن إلى أعماقه .

٤ — دَد : لعب ، وفيها لغات : « رق » مثل دم ، و « دَدَىً » مثل رَحَىً ، و « دَدَنٌ » مثل شَطَنٌ .

٥ — بلهنية العيش : سعته ورغده . وهو من قولهم : عيش أبله ، إذا كان صاحبه ناعم البال ، والنون والياء في « بلهنية » زائدتان ، قال أحدهم :

يا حبّذا الشّرخ وعيشٌ أبله
لاذو المشيب والكبيرُ الأجْلَهُ

الجحد : ضد البلهنية وهو بؤس العيش وشدته . وقد جاء في اللسان — مادة جحد — قولهم :

لئن بعثتْ أمُّ الحُمَيْدَيْنِ رائداً
لقد غنيتْ في غير بؤسٍ ولا جَحْدِ

٦ — الألمىْ : الأسمر الشفتين ، يقال : ظبي ألمى وظبية لمياء ، والعرب تستحسن سمرة الشفتين لأنها تعمل على وضوح الأسنان . الأشنب : المرأة ذات الفم العبق الرائحة . البَرَد : بفتح الباء والراء كنى به عن الأسنان الناصعة البياض .

٧ — قلتاً : يريد الفتحة بين الأسنان ، والقلت لغوياً : نقرة في صخر يجتمع فيها ماء المطر ، والغالب عليها التأنيث ، كقول الشاعر :

لحى الله أعلى تلعةٍ حَفَشَتْ به
وقَلْتاً أقَرَّتْ ماء قيسِ بْنِ عاصم

الذوب : الريق . الجَمَد : بفتح الجيم والميم الأسنان .

٨ — الخوط : الغصن وجمعه خيطان ، واستعمل ذلك في وصف الرجل حين يكون في ريعان شبابه فيقال : رجل خوط ، أي كالغصن نضارةً وحيوية . الغزالة : توهّم بعضهم فظنها الظبية ، والغزالة من أسماء الشمس كما جاءت في قول ذي الرمّة :

فأشْرَفْتُ الغزالةَ رأسَ حوضيٍ
أراقبهم فما أغْنَى قِبالا

ويقال : جئته غزالةَ الضحى : أي لدى ارتفاع الشمس في الأفق . وفي اللسان — مادة غزل — يقول الراجز :

دعت سُلَيمى دعوة هل من فتى
يسوق بالقوم غزالات الضحى
فقام لا وانٍ ولا رَثٌّ القوى

أما قول أبي تمام : « ابن الغزال » فأراد به الغزال بعينه ، وإنما أتى بلفظ « ابن » ليستقيم له الوزن .

٩ — حكاه : أشبه . الجيد بكسر الجيم : العنق الطويل ، ومن أنّث العنق قال : عنق جيداء . وللمذكر يقال : عنق أجيد . جَيَد بفتح الجيم والياء : الجمال والحسن .

وكثر كجيد الريم ليس بفاحش
إذا هي نصّته ولا بمعطّل

ويقول مجنون ليلى في مخاطبته الظبية :

أيا شبه ليلى لن تراعي ، فإنني
لك اليوم من وحشية لصديق
فعيناك عيناها ، وجيدك جيدها
سوى أن عظم الساق منك دقيق

١٠ — لفظ « جَلَد » في الشطر الأول من البيت بمعنى : تصبر وتجلّد ، وفي الشطر الثاني بمعنى الأرض

من الجرداء الغليظة . عزّني : غلبني . ما محّ : بتشديد الحاء ما اندثر وبلي . أى ما بلي من سهل الربع ومن أرضه الغليظة .

١١ — نؤى البيت : حفرة يجعلونها حوله منعاً من دخول مياه الأمطار إليه . ومن عادة العرب إذا ارتحلوا أن يتركوا النؤى بحاله والوتد والأثافى لأن العوض منه يسير . ونسب الشّر للنؤي والوتد لأنه لا يأنس بها إلاّ بوجود أهلها .

١٢ — سأخرق : سأقطع وأجتاز . الخرق : ما اتسع من الارض . الخرقاء : ناقة تسرع السير فتلعب بيديها . وابن خرقاء : جمل تلك الناقة .

ومثل هذا قول النابغة الذبياني :

وأقطع الخرق بالخرقاء قد جعلت
بعد الكلال تشكّى الأيْن والسّأما

الهَيْق بفتح الهاء وسكون الياء : ذكر النعام . النَّجَد بفتح النون والجيم : العرق الكثير .

١٣ — مقابل : أى أن ذلك الجمل قد التقى نسب أبيه وأمه فهو عريق الأصل . الجديل : من فحول الإبل الكرام . القَرا : على وزن عصا يريد الظهر . لوحك : اكتنز لحمه . العجب : أصل الذَّنَب . الكَتَد : معقد الكتفين .

١٤ — تامكه : الضمير يعود الى « القرا » ، والتامك : السنام الطويل . النهد : الضخم المرتفع . الملموم : المجتمع بعضه الى بعض . ومثله فى المعنى المداخل . المخزئل : المنتصب . الأجد : يقال : ناقة أجد أي موثقة الخلق ، وجمل أجد ، فهى للمذكر والمؤنث . وإذا استعملها أبو تمام هنا للمذكر فقد سبقَ النابغة إلى استعمالها للمؤنث فى قوله :

هل تُبْلِغَنّيهِمْ حَرْفٌ مُصَرَّمَةٌ
أُجُدُ الفَقار وإدلاجٌ وتَهْجيرُ ؟

١٥ — قوله : « إلى المقدّى » متعلق بقوله : « سأخرق الخرقاء » أى سأخرق الخرقاء الى المقدّى أي يريد ببعير هذه صفته . الغَمْر : بفتح الغين وسكون الميم الكثير . الثَّمَد : بفتح الثاء والميم القليل .

١٦ — عفاة : جمع عافٍ وهو طالب المعروف . حُبُّ الكبير : مصدر مضاف الى فاعله ويريد حبّاً مثل حبِّ الكبير للصغير من أولاده .

١٧ — أناخوا : نزلوا عن دوابهم ينتظرون عطاياه .

١٨ — الأوَد : الاعوجاج . زدت في أوَد الأموال : أى زدت في تبديدها من أجل الآخرين . أقمت من أوده : أصلحت حال المحتاج .

١٩ — مستمطر : يُطلب فضله كما يطلب المطر من السحاب . بنو مطر : قوم الممدوح . الطِّراف : بوزن كتاب القبّة من أَدَم .

قال طرفة بن العبد :

رأيت بني غبراء لا يُنكرونني
ولا أهل هذاك الطِّراف المُمَدَّدِ

٢٠ — الطّارِف : وزن فاعِل هو المال الذي أحدثته أنت ولم ترثه عن آبائك . وسمهم : علامتهم . التُّلُد : جمع تليد وهو القديم .

٢١ — يميسون : يختالون في مشيتهم . البخترية : يريد يتبخترون . البرود : جمع بُرْد بضم الباء وسكون الراء هو الثياب الغالية الثمن القيّمة . البُرَد : بضم الباء وفتح الراء ما كان ثمنه زهيداً .

٢٢ — القَوَد : بفتح القاف والواو أصله اقتياد القاتل إلى أهل القتيل ليأخذوا بثأرهم منه . لكنه أراد الثأر نفسه .

٢٣ — الصّريح : اللبن الخالص الذي لا رغوة فيه . الزَّبَد : بفتح الزاي والباء الرغوة . وهنا ثمرة المجد .

٢٤ — الهضب : ما ارتفع من الأرض . الحدور بفتح الحاء يعني الانحدار من عالٍ . الصُّعُد : على وزن كُتُب أراد به الطلوع من أسفل الى أعلى .

٢٥ — الخميس : استعمل هذه الكلمة مرتين في البيت نفسه فأراد بالأول الجيش العظيم وبالثانية يوم الخميس أحد أيام الأسبوع . الأقد : بفتح الهمزة و[illegible] الماء السريع .

٢٦ — العقاب : من الطيور الجارحة . حُجُرات : بضم الجيم حجرة وهي الناحية . السُّدَد : مفردها سُدَّة أي الباب .

٢٧ — الضمير المستتر في « شاغب » وفي « قاتل » يعود الى « اللواء » المشبه بالعقاب .

٢٨ — تهفو : تضطرب . ذؤابتاه : أراد ما أسبل من جانبيه . المتن : هنا ما ظهر منه من كل جوانبه . جسده : الجساد بوزن الكتاب هو الزعفران .

٢٩ — الأفياء : جمع فيء وهو الظلّ . الطِّراد : القتال . الطَّرَد : بفتح الطاء والراء يعني الصيد .

٣٠ — عاري القنا : يريد الرماح التي لا تخفق فوقها الرايات . لابسه : أي الرماح التي تخفق فوقها رايات المقاتلين . تدانى : أصله تتدانى فحذف إحدى التاءين أي تقصر .

٣١ — اللَّقَم بفتح اللام والقاف : الطريق الواضح . قَصْد بتسكين الصاد يعني قاصد . قِصَد : بكسر ففتح جمع قِصْدة وهي الكسرة من الرماح . يقول : إن ممدوحه يعلم أن ليس للمجد من سبيل إلّا بأن يطأ على كسرات الرماح . كناية عن شجاعته . وقريب من هذا بيته الذي يخاطب فيه الخليفة المعتصم قائلاً :

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلّا على جسر من التعب

٣٢ — ناراه : يريد نار الضيافة وهذه للكرم ، ونار الحرب كناية عن قوته .

٣٣ — الضمير في « مملوئينّ » يعود الى الصدر والجوانح .

٣٤ — يُبْس الزمان : قسوته وشدته . الثأد : الرخاء والسعة .

٣٥ — اسطاع : استطاع ، حذف التاء ليستقيم له الوزن . حزّ : قطع .

٣٦ — منهم : من طالبي معروفه . ساعة الطلق : أراد ما هو فيه من الدعة والنعمة . أبده : بقية حياته .

٣٧ — « الأسى » بفتح الهمزة : الحزن ، و « الأُسى » بضمها : شدّة الزمان . فهو كثير الاهتمام بالسؤدد والمجد قليل الاهتمام بتكديس الأموال ووفرتها .

٣٨ — القريحة : يريد الذكاء والفطنة . المعاقل : الحصون ، مفردها معقل .

٣٩ — عَبَد : وزن جمل بفتح العين والراء والباء بمعنى الأنفة والكبرياء .

٤٠ — فرند السيف زُبدة وهي سواد في السيف مثل الكلف . وكنى بالفرند والزبد خير الممدوح وشرّه .

٤١ — تالله أنسى : أراد تالله لا أنسى . فحذف « لا » لعلم السامع . وكثيراً ما كانت العرب تحذف حرف النفي بعد القسم ، مثل قول امرىء القيس :

فقلت : يمين الله أبرحُ قاعداً
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح . ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيّات :

والله أبرح في مقدمة
أهدي الجيوش على شكّتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم
وأسوق نسوتهم بنسوتيه

يريد : والله لا أبرح .

ومثله قول عمرو بن ابي ربيعة المخزومي :

تالله أنسى حيا
حباتنا أو أقبرا

أي تالله لا أنسى .

العوراء : الكلمة القبيحة . الثريب : التهمة . الفند : باطل القول .

٤٢ — ذي يمن : أراد صاحب اليمن . حذف الألف واللام إذ كانت العرب تحذفها مع « ذي » . وفي حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — قوله : « يطلع عليكم الساعة خير ذي يمن » يعني جرير ابن عبدالله البجليّ . الحَشْد بفتح الشين : هنا الاجتهاد في جمع القول الصائب .

٤٣ — الجِلّة : بكسر الجيم مفردها جليل وهو العظيم . أنمار : أبو قبيلة . يزعم بعض النسابين أنها من قبائل اليمن القحطانية . ويزعم آخرون أنها من العرب العدنانية بدليل قول الكميت :

فأنمار وإن رغمت أنوفٌ
معديّ العمومة والخؤول

٤٤ — جعلته سنداً : يروى : جعلته لجأً بالتحريك أى ملتجأ . وهذا كناية عن قوة الممدوح .

٤٥ — الغُلّة : بضم الغين وتشديد اللام الحرقة . وفي رواية « في ساعة » .

٤٦ — الشّزر : أصله المحكم من القتل . وهنا قوي الإرادة والحزم .

٤٧ — الأخلاق : جمع خَلَق ٩ بفتح الخاء واللام — أراد هنا القديم من ماله . الجُدُد : مفرده جديد وهو عكس الخلق .

٤٨ — الرِّفَد : بكسر الراء وفتح الفاء جمع رِفْده وهى الجماعة من الناس لكن أبا تمام عنى بها الرِّفْد بتسكين الفاء التي بمعنى العطاء . وجاءت الرِّفَد بكسر ففتح بمعنى : تتابع القول . كما هو في بيت النابغة الذي يخاطب فيه النعمان بن المنذر :

لا تأخذنّي بركن لا كفاء له
وإن تأثفك الأعداء بالرِّفَدِ

(التحليل الأدبي)

بهذا المطلع التقليدي في مضمونه ، المستحدث في شكله ، يستهل أبو تمام قصيدته . تقليدي لانه جرى فيه على عادة القدماء في ذكر الديار وسؤال الأطلال ، ومستحدث لأنه لم يترسم خطاهم في تعداد مواقع المحبوبة ومتابعة ركبها ، إذ كان الشعراء القدامى يصورون من خلال أسلوبهم ذاك وحشة الدار في نفوسهم ، وأثر ارتحال أهل الحي في قلوبهم . بينا عمد شاعرنا الى أسلوب علّه آكد في تثبيت الصورة في الأذهان . فنفث زفراته في أسئلة متتالية تبين مدى الحيرة التي وقع فيها ، وكأنه لم يتمالك مشاعره حين رأى ما حل بكثيب الحمى من بلى وتغير حال ، فأسقط في يديه وانهال لسانه بستة أسئلة حشدها في البيتين الأول والثاني ، وهيهات أن يجد جوابا شافيا .

ولأهمية الديار في نفسه ، وشدة ارتباط الشاعر بذكرياته مع أهلها ، كرّر الضمير المتصل العائد الى كثيب الحمى ثماني مرات في البيتين المشار اليهما .

وهذا التكرار بل قل الإلحاح من الطائي لم يصدر عبثاً ، وإنما هو بمثابة أضواء مسلطة على الكثيب الذي حرّك مكامن الحزن بين جوانحه من جهة ، وجذبا منه للقارىء ليعيش معه الجو النفسي الواقع تحت تأثيره من جهة اخرى .

وإذا وصف أبو تمام فقد يتجاوز الجوانب الحسية الى النفسية . وهذا ما نلمسه في

وكانت أمه من بيت قرشي . وهو بيت عربي عرف بالعلم وينتهي نسبه الى بني أمية . وقد تولى الكثير من أفراد هذا البيت قضاء دمشق مدة طويلة . وقد كان جده لامه يحيي بن علي بن عبد العزيز المتوفى سنة **٥٣٤** هـ/١١٣٩ م عالما بالنحو والعروض الى جانب علمه بالفقه والحديث . تولى القضاء بدمشق مرة . وكان ينوب عنه فيه ابنه ابو المعالي (٣) .

كما تولى خالاه (أبو المعالي محمد بن يحيي . وابو المكارم سلطان بن يحيي) قضاء دمشق وقد كانا على قدر كبير من العلم . وقد تفقه ابو المكارم على كبار العلماء مثل نمر المقدسي . وارتحل الى العراق ومصر طلبا في الاستماع الى علماء الحديث . كما جلس ابو المكارم بالمسجد الجامع بدمشق للوعظ والارشاد . فقد تحدث عنه ابن عساكر فقال : « انه كان واعظا طيب الصوت وكان لوعظه في بغداد شأن حتى أن أبا بكر محمد بن القاسم الشهرزوري حين وصل الى دمشق ارسل رسولا يقول اشتقت الى سماع القاضي ابي المكارم لاني سمعته بالعراق وسأل اباه(اى والد ابن عساكر) حتى أجاب لانه كان قد ترك الوعظ (٤) .

وكانت اخته (اخت ابن عساكر) زوجة محمد بن علي بن محمد بن الفتح السليمي . وبيت السليمي بيت علم ووجاهة . فقد كان لاخته ولدان عالمان هما ابو طالب الحسن وشرف الدين وكانا ممن قرأ عليهما ابن عساكر التاريخ فيما بعد (٥) .

لقد كان لهذه البيئة التي نبت وترعرع فيها ابن عساكر شأن كبير . فقد جمع افرادها اطراف العلم واسباب الفضل . ومن ثم فقد وجد فيها الحافظ بن عساكر ما ساعده ورغبة في العلم والمعرفة حتى غدا مؤرخ الشام وحافظ العصر (٦) .

فلم يكد يبلغ الحافظ بن عساكر السادسة من عمره حتى اقبل على العلم يرعاه أبوه ويسمعه الصائن اخوه . ثم اخذ يتردد الحافظ على كبار الشيوخ يومئذ فيقرأ على سبيع بن قيراط . ويستمع الى أبي القاسم النسيب . وأبي الفرج الصوري . وقوام بن زياد . وأبي طاهر الحنائي الذين اخذ عنهم الحديث . كما انتفع بصحبة جده فاخذ عنه النحو والعربية ثم يشارك في سنه المبكرة كما يشارك الكبار . كل ذلك وابن عساكر لم يبلغ الحلم بعد .

ولم يكتف ابن عساكر بما حصل عليه في هذه السن المبكرة من العلم والمعرفة . بل رحل في صباه الى الشرق رحلة دامت خمس سنين . فسمع بمكة . ومنى . والمدينة . والكوفة . وأصبهان القديمة . ومرو . ونيسابور . والشاهجان . وهرات . وسرخي . وطوس . وبسطام . والرى . وزنجان . وبلاد كثيرة في العراق وخراسان والجزيرة والشام .

ويبدو أن الحافظ بن عساكر كان قد اكتفى بمن اخذ عنهم من الشيوخ في هذا الجزء من آسيا ولم يتعداها الى افريقية . فقد بلغ عدد شيوخه الف وثلثماية شيخا وثمانين امرأة ونيفا . ولعل اشهر من أخذ عنهم هو أبو سعد السمعاني الذى كان رفيقه في بعض رحلاته (٧) وغدا الحافظ بن عساكر محدث الشام . ومن اعيان فقهاء الشافعية فقد قال عنه ابن خلكان (٨) « كان الحافظ ابن عساكر فخر الشافعية وأمام اهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم . فقد غلب عليه الحديث واشتهر به وبالغ في طلبه الى ان جمع ما لا يتفق لغيره . فصنف التصانيف المفيدة وكان حسن الكلام على الاحاديث . محظوظا في الجمع والتأليف . لم ير الا مشتغلا بعلم وعبادة . يحاسب نفسه كل لحظة ولم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من

والعطاء . ومن طبائعهم الصبر على الشدائد والشجاعة في موضعها ، فاذا قتل أحدهم اقتادوا القاتل وأخذوا ثأرهم منه ولا يبكون قتيلهم حتى يمرّ على الأخذ بثأره حول كامل ، وتلك مبالغة — لعمري — من نسج خيال أبي تمام الصانع الماهر في صنعته . بل يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، فيشبهم بالإناء الفياض بالمجد ، بوركت العُلىٰ في خالصه وزبده ، وكأنها تزداد بهما عزة وفخاراً . وهم ذووا جانبين ، أحدهما سمح ليّن لمن أراد أن يعاملهم باللين والحسنى ، والآخر خشن يبطشون به ويقهرون به من حاول قهرهم ومغالبتهم .

ويعاود الإلتفات الى أبي يزيد قائلاً له : نعم لواء جيشك المظفر الذي رجعت به في ضحى يوم الخميس ، فان من نظرة الى ذلك اللواء وهو خفاق في أعالي الفضاء ، ظن أن عقاباً قد طارت به وحملته معها ، حيث شاغب الجوّ وهو مسكنه ، وقاتل الريح التي تعد بعضاً من مدده .

ومن ثم يتناول في وصفه الرماح والرايات تخفق فوقها يوم الوغى ، ويقول إن لواء أبي يزيد تضطرب جوانبه من فوق ملك يرى منازلة الأبطال هواية له وكأنه يطارد الصيد فلا يتردّد في قتالهم . وقد نال هذا الرجل ما ناله من المجد الذي تعجز عن بلوغ أمده الجوزاء في عليائها بواسطة الرماح تخفق عليها الرايات واخرى لا تخفق من فوقها ، لِمَ لا وهو يعلم علم اليقين أن لا سبيل في العُلىٰ إلاّ بالوطء على كسرات الرماح واقتحام الأخطار ؟

وهكذا يطول نفس الشاعر في تعداد مناقب ممدوحه ، مفرغاً بذلك تجربته الشعرية الرائدة في هذا المجال . فيجعل له ناريه إحداهما تضرم في السلم والرخاء ، والأخرى في الحرب والانتقام من الأعداء ، لأنه جواد لا تطفأ ناره للضيف ، وشجاع يشعل نار الحرب بسيوفه . ويا له من رجل بلغ ذروة الحلم والعطف . حتى أن صدره وجوانحه امتلأت رحمة بالذي امتلأ صدره وجوانحه حسداً له ، لأنه لا يعاقب المسيء بالإساءة وإنما بالعطف والإحسان . كما انه ليس ممن يخلدون للراحة الجسدية ، ويغفلون عن مسئولياتهم ، ولكنه يقتطع من راحته للإعداد لشغله ويدخر من وقت الرخاء ما يقيه من بؤس الزمان وشدته ومن صفاته أنه معطاء لا يحدّ كرمه حدّ ولو استطاع أن يقدم لطالبي معروفه كل ما لديه من أموال وبعضا من أعضاء جسمه لما تردد في ذلك ، ولا شك أن الناس مدركون استعداده للسخاء ، حتى أن منهم من يحسب ما هو فيه من عطاء سيظل عتاداً له في بقية حياته وذلك اقتناعا منه في أن أبا يزيد سيواصل عطاءه ويجود بما عنده وبالرغم من كثرة أموال الممدوح وتوفر رغد العيش ، فانه يُعنى بشيء أهم ويسعى جاهداً الى تحقيق أكبر قدر منه ألا وهو السؤدد والمجد . ولا غرابة في ذلك فهو ذو رأي سديد وفكر ثاقب يتمكن بنظرته الصائبة وتقديره الصحيح للأمور أن يدفع عن نفسه نائبات الدهر كما تدفع القلاع عمّن يحتمى بها . وإذا أَجلْتَ النظر في وجهه فستجده كالبدر حسناً وجمالاً . وقد يعاوده عباس أشبه بعبوس الليث في كبريائه وأنفته . وهو كالسيف يملأ رونقه عينيك تارة ومن سواد ربده أخرى ، وبذلك يجمع شخصه بين الخير والشر فيعامل الناس بما يستحق كل منهم . وبعدئذ يقسم الشاعر أنه لا ينسى موقف ممدوحه من دفع الزور وباطل القول . وكذلك فإن احياء يمنية لن تنسى ما كان من نصره في الحروب وإصابته مفاصل القول .

وفي خاتمة المطاف يبين شاعرنا ما كان من الممدوح ازاءه فيقول : قرّبني من نفسه وأكرم ضيافتي إذ جعلته سنداً لي . وكل امرىء يلجأ الى سنده فيتحصن به إلاّ أن حرقة نشأت في فؤادي لا أقدر عليها ولكن قدر عليها أبو يزيد بما كان من فضله العميم . حيث آثرني إيثار رجل قوي الرأي حازمه يعلم أن تقديم العطية لمن لا يستحقها هدر لقيمتها ، وامتهان لقدرها ، وهو يحسّ بأن معالجة المعروف وفعل الخير اولى من معالجة جسده حرصا منه وإمعانا في إسداء الخير للناس . وحينما جاءه الطائي زائراً جاوز به الأموال القديمة الى الحديثة ولم يتردّد في اصطناع الأيادي البيضاء ، حتى راح الشاعر من عنده وهو مثقل بالعطايا التي اعتاد طالبو المعروف أخذها من أبي يزيد .

آثار الصنعة الشعرية في القصيدة :

علّ أحداً لا ينكر أبي تمام على زمام صنعته الشعرية ، التي ميّزته عن سائر شعراء العرب — قديما وحديثا — فهو الى جانب موهبته الفذة وطبعه الاصيل ، حاذق الصنعة ماهر بدقائقها . بل قد ينتصر لجانب الصنعة ويغلبه على غيره . ولا نشتط في رأينا إذا قلنا إن ذلك يكون على حساب المعاني في أحيان كثيرة .

والقصيدة التي بين ايدينا نموذج حي يجسد خصائص أبي تمام الفنية لأنه أفرغ خلالها تجربة عميقة عاش وقائعها . وبذلك فإنه يصدر عن عاطفة صادقة الى حدّ بعيد ، وما نراه من دقة افتتانه بشعره ومعاناته فى صياغته أسلوبه . يرجع الى حرص شاعرنا على توفير كل الإمكانات التى تخدم الصورة اللائقة بنظرته التحليلية للامور . ولتكون أكثر حركة وحيوية

وشاهدنا على ما نقول بيتاه — الرابع والخامس — اللذان يصور فيهما سعادة الحسان ، حيث عمد الى جعلهن يلبسن ظلين هيهات أن يجتمعا لأحد من البشر هما : ظل أمن يقيهنّ من عوادي الزمن . وظل لهو يمتعهن بنعيم الدنيا . صحيح أن الثراء يهيىء لصاحبه وسائل الراحة ونعومة العيش . لكنه لن يوفر له الأمن من حوادث الدهر . وكلمة « دَد » في نهاية البيت جاءت مرادفة لكلمة « لهو » ومعطوفة عليها فأكسبت المعنى تأكيدا لجانب الرخاء الذي كنّ ينعمن في ظله . أما ظل الأمن من نائبات الدهر فهو مبالغة من الشاعر في توفير الحياة المثالية لهؤلاء الحسان . ونتيجة لهذا العيش الرغد يقدم معادلة مكونة من شقين متعادلين

هما : علمهن علم اليقين بحياة الرخاء ومرورهنّ بتجربة الثراء وتربيتهن في الدعة والدلال فإذا ما أخبرن عن شيء منها فهن خير من يصف تلك الحياة ، وبالمقابل يجهلن كل الجهل حياة الشدة وحال البؤس حيث لم يخبرن شيئاً من ذلك فيسألن عن هذه الحياة من عاشها من الناس الآخرين . وواضح الإجمال يليه التفصيل في بيته الرابع : « لبسن ظلين ظل أمن من الدهر وظلاً من لهو » .. والتضاد في البيت الخامس بين كلمتي : الإخبار والسؤال ، وبين

البلهنية والجحد .

ومن استحواذ الصنعة على المعاني ما يتمثل في بيته :

سأخرق الخرق بابن خرقاء كالْ
هبق إذا ما استحمّ من نجده

من تكرار مادة « خرق » ثلاث مرات في الشطر الأول من البيت ، مما جعل الأسلوب ركيكاً ، والمعاني ضحلة ، والموسيقى ممجوجة نظراً لخروج « القاف » من الحلق .

ثم اقرأ معي بيته الذي أثقله بست صفات لا فاصل بينها :

تامكه نهده مداخله
ملمومه مخزئله أجده

علّك تجد ما يسوغ له مثل هذا الحشد ، سوى غرام الشاعر بتنميق الشكل وهندسة المقاطع الموسيقية ليستقل كل مقطع بلفظ منفرد ، بالإضافة الى « الهاءات » الست التي زادت موسيقى البيت الداخلية انطلاقاً وإن كان ذلك على حساب المعنى .

أقول : ليست المبالغة الشعرية مما يتحرج منه أبو تمام ، بل قد يتخذ منها عونا له في التعبير عما يريد تصويره ، فأبو يزيد معطاء تزخر نفسه بالكرم حتى يضل كثير الملوك لا في كثيره وإنما في قليله . اسمعه يقول :

إلى المفدّى أبي يزيد الذي
يضل غمر الملوك فى ثمده

وحين يصف القوم بالشجاعة والتجلّد على المصائب ، لا يقف به الحد عند أخذهم بثأر قتيلهم وكفى . وإنما من قوة الاحتمال بما يجعلهم لا يبكون ذلك القتيل إلاّ بعد مرور حول كامل على الأخذ بثأره فيقول :

لا يندبون القتيل أو يأتي الحول لهم كاملاً على قَوَدِه

وما تلك الحرقة في نفس الشاعر التي ما لبثت أن تحولت الى نار على كبده أعيا عليه إطفاؤها الى أن تداركها الممدوح بإيثاره فقدر عليها ؟

في غلّة أوقدت على كبد السائل ناراً تعيا على كبده

إنها الصنعة الشعرية التي تحلّق بأبي تمام ، ويحلّق بها ، في أجواز الفضاء ، ليقتنص ما شاء له الخيال ، وإن كلفه ذلك إرهاق معانيه ، وإلاّ فما الذي هيأ له تصوير ممدوحه وقد استوت لديه مقارعة الأبطال في الحرب ومطاردة الصيد في الصحراء ؟ الحرب لها فنونها وضروبها ولا بد للقائد أن يخطط بما يتناسب وخطورتها بما يتناسب وخطورتها مهما بلغت به الشجاعة . فكان على أبي تمام أن يضع ممدوحه منها موضع المفكر المتقّد لا موضع المستهتر الذي لا يقيم لها وزناً إلاّ بالقدر الذي يقيمه لمطاردة وحوش الصحراء وحبذا لو أدخل فعل « يكاد » قبل الفعل « يرى » لاستقام له المعنى أكثر في قوله :

تمخض أفباؤه على ملك
يرى طراد الأبطال من طرده

ونسجل للشاعر احتراسه من الوقوع في هوة سحيقة من المبالغة إذ يقول :

فهو لو استطاع عند أسعده
لحزّ عضواً من يومه لغده

بإدخاله حرف الشرط « لو » الذي جعل المعنى مقبولاً بما له من أثر بلاغي في عدم استطاعة الممدوح على حزّ عضو من جسده وبالتالي عدم تقديمه للناس على سبيل الجود .

وتلك صورة رائعة حينما نرى رجلاً ممتلىء الصدر والجوانح رحمة وعطفاً إزاء من امتلأ صدره وجوانحه حسداً له ، في الوقت الذي يقدر فيه أن ينتقم لنفسه منه ، وهكذا يصور الطائي ممدوحه بإضفاء ثوب الحسية على الرحمة التى ملأت صدره وجوانحه :

ممتلىء الصدر والجوانح من
رحمة مملوئهنّ من حسده

وبرياً يأبي يزيد أن يركن للراحة مستنداً لما ورثه من أجداده وآبائه الشمّ المغاوير الذين شادوا صرحاً عظيماً من الأمجاد ، لأنه يسعى للمجد عن طريق الرماح التي تخفق من فوقها رايات المحاربين ، والرماح التي لا تخفق من فوقها مثل تلك الرايات فيحقق بذلك مكانة رفيعة تتدانى عن أمدها الجوزاء :

نال بعاري القنا ولابسه
مجداً تدانى الجوزاء عن أمده

ولا نعدم أن نرى وأضواء مسلطة على زوايا النفس الإنسانية في شعر أبي تمام — عامة — وقصيدته التي بين أيدينا — خاصة — وهو الذي عرف عنه دقة حسّه وعمق نظرته ، فمن بين خصال ممدوحه خصلة تبرز في بيته القائل :

ظلّ عفاة يحب زائره
حبّ الكبير الصغير من ولده

أى أنه يحب زائره الذي يطلب معروفه مثل حب الرجل أصغر أولاده ، وأي إنسان بل أي مخلوق يؤثر أحداً على ولده ؟ حقا إن فلذة كبد الرجل أعز شيء لديه ، فهذا الممدوح ان بلغ به الحب وإكرام الزائر هذا المبلغ يستحق من الشاعر كل هذا الإطراء ، وقد سئل أحد القدماء عن أحب أولاده إليه ، فأجاب : الصغير حتى يكبر ، والمريض حتى يبرأ ، والغائب حتى يعود . وهكذا استطاع شاعرنا بهذا التعبير أن يصور نفسية ممدوحه بأجلي صورها ، وتمكن أن يوقفنا على لمسة من لمساته الشعرية الممتازة ، فتفوق على زهير بن أبي سلمى .